الفضاء الرقمي العابر للأوطان والمجتمعات الإفتراضية

Transnational digital space and the virtual communities

كمال هاملي[1*]

[1] جامعة مولود معمري تيزي وزو(الجزائر)، kamal.hamli@ummto.dz

تاريخ الاستلام: 2022/05/19 تاريخ القبول: 2022/10/28 تاريخ النشر: 2023/03/08

ملخص:

تهدف دراستنا الحالية إلى التعريف بالفضاء الرقمي العابر للأوطان بوصفه بيئة اتصالية جديدة أنتجت أشكالا جديدة من الاجتماع البشري تمثلت في الجماعات الإفتراضية التي ما فتأت تتطور وتنمو بشكل متسارع، حيث حاولنا تتبع المسار التاريخي لها من لحظة هابرماس إلى الفضاء السيبراني.

أسفرت الدراسة عن أن عديد العوامل ساهمت في تنامي الجماعات الإفتراضية، مما قد أصبح من الضروري دراسة سوسيوثقافية معمقة لفهم واستيعاب هذا الشكل الجديد الذي جاوز علم الاجتماعي الكلاسيكي والبحث عن أدوات منهجية ملائمة

الكلمات المفتاحية: الفضاء العمومي العابر للأوطان، الفضاء السيبراني، المجتمعات الإفتراضية

Abstract:

Our current study aims at define the transnational cyberspace as a new communication environment which produced new forms of human society represented in the virtual communities, which are developing quickly, where we tried to follow its historical path form Habermas to cyberspace.

The study found that many factors contributed to the growth of virtual communities, which has become necessary a deep sociocultural study to understand this new form which exceeded the classic sociology and to search new appropriate methodical tools.

Keywords: transnational public sphere, cyberspace, virtual comunities

* المؤلف المرسل: كمال هاملي

1. مقدمة:

أضحى اليوم الفضاء السيبراني فضاء إجتماعيا افتراضيا قائما بذاته، له محدداته، غاياته، مرتكزاته ومبررات وجوده، يستقطب أفراده ومنتميه من جميع أرجاء المعمورة، تأشيرته جهاز موصول بالإنترنت وكبسة زر أو لمسة شاشة، وكما يبدو فإن نظرية الحتمية التكنولوجية لصاحبها ماكلوهان Mcluhan لا تزال تحتفظ بقوتها التفسيرية في محاولة قراءة التشكلات الإجتماعية لاسيما الإفتراضية الجديدة التي فرضتها البنية التحتية الإتصالية التي أحدثتها الثورة الرقمية والمعلوماتية، فأصبح العالم قرية صغيرة متكونة من مجتمعات إفتراضية تتبادل الأفكار والرغبات والآراء، فظهرت كشكل من أشكال الحياة الجديدة محدثة ثورة على مستوى التنظيمات والبُنى الإجتماعية والعلاقات الإنسانية، على الصعيد الأنطولوجي من حيث أنها قدمت لنا إنسانا شديد الإلتصاق بالتكنولوجيا وإتيقيا من حيث الأطر الأخلاقية والقانونية العامة التي تؤطر تلكم الجماعات الإفتراضية.

ولم تنعكس الثورة التكنولوجية والإتصالية على ما ذكرناه فحسب، إنما فتحت الباب على عديد الحقول المعرفية التي تتخذ من الجماعات الإفتراضية موضوعا لها كعلم الإجتماع الرقمي الذي يضطلع بمهمة دراسة التكوينات الإجتماعية في وسط البيئة الإتصالية الجديدة، ويمكن القول بأن التحدي الأكبر لعلماء الإجتماع البحث عن مناهج وآليات دراسة هكذا تجمعات وطرق إيجاد محدداتها ومؤشراتها، بحثا عن تفسير الظاهرة الإجتماعية الإفتراضية، ولعل هوارد راينجولد Howard Rheingold قد فتح الباب أمام الباحثين لاسيما من خلال كتابه The virtual community وخطا الخطوات الأولى في هذا المسلك، وعليه، نطرح التساؤلات الآتية:

ما هي ملامح المجتمعات الإفتراضية؟ وماهي العوامل التي أدت إلى ظهورها ونموها؟ ووفق أي مقاربة يمكن دراستها وترصد منعرجاتها وتحولاتها؟

وسنحاول أن نجيب على هذه التساؤلات وفق مقاربة فلسفية إجتماعية نظرية، وفق منهجية تحليلية.

1.الفضاء العمومي: مقاربة تاريخية فلسفية

2.1.من هابرماس إلى فريزر

إن تناولنا لتيمة الفضاءات الإفتراضية، يفرض علينا منهجا وموضوعا العودة إلى الإطار النظري الفلسفي والإجتماعي والمتمثل في نظرية الفضاء العام ليورغن هابرماس التي أرسى معالمها ضمن كتابه: Strukturwandel der Öffentlichkeit. Untersuchungen zu einer Kategorie der bürgerlichen Gesellschaft أي التحولات البنيوية في الفضاء العمومي، ومن الملاحظ أن كلمة Öffentlichkeit في هذا السياق حمالة أوجه فهي تحمل معنى الفضاء العام، المجال العام، الجمهور، إضافة إلى الرأي العام ويمكن القول بأن لها حمولة لغوية فلسفية واجتماعية وسياسية.

انطلق هابرماس من قرائته لكانط وعلى الخصوص لمبدأ العمومية الذي وضعه هذا الأخير، أي "الإستعمال العمومي للعقل" لدور الفضاء العمومي في بناء الديمقراطية وإعادة النظر في الفعل السياسي ويمكن القول إن الفضاء العمومي قد نشأ من عملية تمييز الحيز الخاص من الحيز العام (أي السلطة) من حيث هو مجال مفتوح للجميع.

وإذا ما رُمنا تقديم تعريف هابرماس للفضاء العام فلن نجد تعريفا واحدا، لكنه يراه بوصفه أي المجال العام مكانا ماديا كان أو رمزيا فيه/من خلاله تُدار وتُناقش الأفكار بطريقة عقلانية من أجل بلورة رأي عام، ففي كتابه الفضاء العام (Public sphere) كان يطمح إلى خلق مبدأ يكون **النظام الإجتماعي** من خلال تاريخ العلاقات بين الفضاء العمومي والفضاء الخاص فاهتم بشكل كبير بالفضاء العمومي البرجوازي من خلال رصد وظائفه وآلية عمليه وأيضا تناقضاته، يقول هابرماس في كتابه: "الفضاء العمومي البرجوازي يمكن أن يكون في البدء، مفهوما بوصفه تجمعا للأشخاص الخاصين ضمن مجموعة أو مكان عام يزعمون أن هذا المكان تنظمه السلطة القائمة، لكنه بشكل مباشر هو في الحقيقة ضد السلطة في حد ذاتها، إذ هو وسيط بين هذه المعارضة بين الفضاء العام والسلطة وهو أصيل ومتجذر وسابق في التاريخ: إنه الإستخدام العمومي للعقل".(Habermas, 1962)

ويتكون المجال العام وفقا لرؤية هابرماس من مجموعة من الأفراد يجتمعون معا لمناقشة القضايا العامة في الأماكن العامة كالمقاهي والنوادي وغيرها، وهذا المجال قد يكون **اجتماعيا أو سياسيا**، وبعدها تحول المجال العام مع ظهور وسائل الإعلام التي استبدلت التفاعلات

الشخصية بأنموذج آخر **أحادي الاتجاه**، أو بعبارة أخرى اعتماد الأفراد على وسائل الإعلام الإذاعية بدلا من المشاركة في المنظمات المجتمعية العامة، ولكن هابرماس أعرب عن انتقاده لتمثيل وسائل الإعلام للمجال العام، لأنه رأى أن تدفق المعلومات من خلالها يتم بشكل أحادي الإتجاه، لأنه لا يعطي للجمهور فرصة حقيقية للمشاركة في الحوار والتفاعل.

وعليه، يمكن اعتبار المجال العام مساحة مجردة، فيها ومن خلالها يتناقش ويتجادل المواطنون وأفراد المجتمع المتمايزون والمتباينون، ويتجادلون حول مختلف الاهتمامات المشتركة والقضايا، مما يضفي على الفضاء العام هذه العمومية ويجعله فضاء مفتوحا على جميع أطياف المجتمع، أما معيار ومنطق النقاشات فهو السجال العقلاني، وبالجملة فهو أفق للحوار وحرية التعبير واعتراف بالآخر على سبيل حق المشاركة في صناعة الرأي العام كما يمكن اعتباره من جهة أخرى حاضنا لاسيما لمن هم مهمشون.

إن عرضنا للإطار النظري والتاريخي للفضاء العام من خلال الرجوع للحظة هابرماس ليس على سبيل العرض التاريخي فحسب لكننا آثرنا وضع الأطر العامة لنبني عليها منظوريتنا، وإن كان موضوع بحثنا يشمل الفضاء السيبراني بما هو فضاء عمومي بُني على الأسس التكنولوجية ومفاهيم الدولة المعاصر متجاوزا الأطر الكلاسيكية، فالفضاء العام البورجوازي أُسس له نظريا وفقا للمحطات التاريخية التي رصدها هابرماس غير أن الفيلسوفة الأمريكية نانسي فريزر أعادت النظر في بعض مرتكزات نظرية هابرماس من خلالها نقدها لتصور ما تسميه بالإطار الويستفالي الذي يحكمها والذي يعود إلى أسس معاهدة ويستفالي العام 1648 التي ساهمت في وضع أُطر الدولة الحديثة أي الأمة، معتبرة أن نظرية هابرماس متجاوَزة بالنظر إلى متغيرات اليوم وما أفرزته الدولة من إعادة النظر في أسس الدولة-الأمة etat-nation وفي النظرية الديمقراطية عامة انسجام ومستجدات الحركة الإجتماعية الجديدة وديناميكيتها العابرة للأمم والحاجة إلى فضاء عمومي ما بعد برجوازي بديل.

اهتمت نانسي فريزر بمفهوم الفضاء العمومي عند هابرماس، بالنظر إلى قيمته السياسية التي تساهم في فهم الملابسات التي تعترض الحركات الاجتماعية التقدمية، والنظريات السياسية التي ترتكز عليها. فقد مثلت هذه النظرية طوال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، إسهاما مباشرا في فهم التغيرات السياسية التي أعقبت ثورة مايو (أيار) 68، خاصة

بعد ظهور الحركات الاجتماعية الجديدة من قبيل: الأقليات العرقية والإثنية، الحركة النسائية، حركات الحقوق الجنسية، حركات الثقافات واللغات المهمشة، حركة العاطلين عن العمل، والحركات المتصلة بمختلف المشاكل التي أفرزتها الرأسمالية عبر تطورها التاريخي.

انصب اهتمام فريزر أساسا، على محاولة تجديد أطروحات النظرية النقدية، من خلال مراجعة مواقف الجيل الأول والثاني من أجيال مدرسة فرانكفورت، وفي هذا السياق راجعت نظرية هابرماس في الفضاء العمومي، أو فيما تسميه «النموذج الليبرالي للفضاء العمومي البرجوازي»، لبيان صلته بالنظرية النقدية المعاصرة، ولفحص الأسس السياسية والفلسفية التي قام عليها، من أجل صياغة أطروحة جديدة أو ما تطلق عليه اسم «الفضاء العمومي ما بعد البرجوازي» l'espace public post-bourgeoisies.

وتعرف نانسي فريزر الفضاء العام بوصفه: فضاء المجتمعات الحديثة، وهو فضاء المواطنين الذين يناضلون من أجل **مصالحهم المشتركة**، فضاء يؤسس **تفاعلا تداوليا**. وهي تنتقد تعريف هابرماس للفضاء العام الذي يسقط فيه نموذج الفضاء العام البورجوازي على المجتمعات الحديثة، فهو كما أسلفنا يحدد مشاركة جمهور مثقف يتقن استخدام العقل بشكل نقدي، كما انتقدت أيضا فريزر هابرماس لعدم تنظيره لفضاء عام بديل عن الأنموذج الليبرالي الذي يتناسب والشروط الجديدة لديمقراطية الجماهير، ووظائف النظرية النقدية المعاصرة، إذ تؤكد فريزر أن الشروط الجديدة لديمقراطية الجماهير ولدولة الرعاية في نهاية القرن العشرين، أسقطت الفضاء العمومي البرجوازي وأنموذجه الليبرالي في عداد النسيان، وأن شكلا جديدا للفضاء العمومي ضروري لحماية وصيانة الوظيفة النقدية لهذا الفضاء ولمأسسة الديمقراطية. ولهذا اقترحت فضاء عموميا عابرا للأوطان بديلا غير برجوازي بديلا عن الفضاء العام الهابرماسي.

2.2.من الفضاء العمومي إلى الفضاء السيبراني:

يُعرف الفضاء السيبراني Cyberspace بأنه بيئة إنسانية جديدة للتعبير والمعلومات والتبادل، وهو يتكون أساسا من الأشخاص الذين ينتمون لكل الأقطار والثقافات واللغات والأعمار والمهن المرتبطة ببعضها البعض عن طريق البيئة التحتية الإتصالية التي تسمح بتبادل المعلومات ونقلها بسرعة، وعليه تُستعمل كلمة cyber مقترنة بكلمة espace لتشير إلى

أشهر تعبير في عصر المعلومات، وأصبح هذا المفهوم أشمل وأوسع من الإنترنت ليضم كل الإتصالات والشبكات وقواعد البيانات، كما يشير كذلك إلى مجموعة المعلومات المتوفرة الكترونيا ويتم تبادلها وتشكيلها في مجموعات بناء على استخدامها، ومن المعلوم أن المجتمعات البشرية مرت بثلاث محطات رئيسة، بدءا بالمجتمع الزراعي فالصناعي إلى العصر ما بعد الصناعي أو عصر المعلومات، فكان لكل مجتمع خصائصه ومكونات **بنيته الإجتماعية**، ومجتمع المعلومات كان النتيجة الحتمية للتطور الهائل الذي عرفته البنية التحتية بالتعبير الماركسي من حيث التكنولوجيا ووسائل الإتصال والشبكة المعلوماتية جعلت من العالم قرية كونية (ماكلوهان 1964) وأدت إلى انضغاط الزمان والمكان، فاختزلت المسافات، ومما هو معلوم فإن البنى التحية تؤثر في البنى الفوقية، إن هذه الأرضية المعلوماتية الجديدة أدت إلى تحولات كثيرة ومنعرجات حاسمة ساهمت في تشكيل بُنى اجتماعية جديدة من حيث طبيعة الأفراد وطبيعة العلاقات.

يمثل التحالف بين الثقافة والتقانة ذروة القدرات التي تقدمها العولمة في الحقل الثقافي فهي تمكنت فعليا من اختراق الحدود الثقافية انطلاقا من مراكز صناعة وترويج النماذج الثقافية، وأصبحت صناعة الوعي رائجة ذلك أن البنية التحية الخوارزمية تتحكم في البنية الثقافية من خلال خوارزميات معقدة تتحكم في المحتوى المعرفي المعروض وتوجه الرأي العام بطريقة انسيابية لاتجاهات وآراء وأيديولوجيات معينة يقول جيل دويك Jiles Dowek: "أصبحت خوارزميات الأنظمة المعلوماتية موجهة بالقدر الذي يمكن لها أن تتحكم في مشاعرنا وأهوائنا، اختيارات انتماءاتنا السياسية آرائنا التي نتبناها قناعاتها التي نشأنا عليها وعقائدنا، أصبحت توجه الرأي العام في الانتخابات وحتى القضايا المصيرية، ويمكن القول بأنها تتحكم أيضا في سياسات الدول ونمط تفكيرنا إنها تُعنى بأنفسنا أكثر منا" (Dowek & Abiteboul, 2017)

إن هذه الحالة الجديدة من الواقع، ساهمت في ظهور مجال عام افتراضي يتجاوز الدول القومية وعابر للأوطان كما قالت نانسي فريزر، إذ ظهرت مفاهيم جديدة ارتبطت ارتباطا مباشرا بشبكة الإنترنت فتحدث البعض عن الديمقراطية الإلكترونية والمجال العام الإلكتروني Electronic public sphere ويمكن القول بأن المجال العام الإفتراضي هو مجال مشترك مفتوح لجميع أفراد المجتمع، حيث يتيح هذا المجال لكل فرد الوصول إليه والمشاركة

والتفاعل من خلال غرف الدردشة ومنصات التواصل الإجتماع، وعليه فإن أهم ما يميز هذا الفضاء الجديد هو التفاعلية interactivity التي تتم بين الأفراد خلال المجالات الخطابية عبر استخدام وسائل الإعلام الجديدة new media.

كما أدى استخدام مواقع التواصل الإجتماعي كالفيسبوك والتويتر واليوتيوب والانستغرام في المناقشات العامة والخاصة إلى تعزيز الحريات من خلال الخطاب الذي يقدمه المشاركون عبر هذه الأدوات التي تعمل على طرح الآراء دون قيود.

يقدم بودريار Baudrillard فرضية المجتمع المعولم الذي خلقت حوله وسائل الإعلام الجماهيري الرقمي قدرا كبيرا من الرموز المشبعة بالمعاني الذاتية المرجعية فهو عالم زالت منه علاقة الدال بالمدلول، وهكذا ضاع الواقع في متاهة المصطنعات أو الصور اللامتناهية، المتخيلة والوهمية التي تروجها الميديا، وبذلك يفقد الواقع وجوده، ويصبح تلك النسخ المصطنعة رقميا عبر أجهزة الكمبيوتر، وعليه فإننا نعيش الآن في عالم فوق الواقع hyperreel هو العالم التكنولوجي الافتراضي المصطنع (بودريار، 1981)، وما نلحظه أن عالم الميديا أو الفضاء السيبراني أصبح منتجا ومستهلكا بعبارة أوضح أصبح منتجا للمعلومات ومستهلكا للمعنى والواقع الحقيقي فهو من جهة بنى فضاء فوق الفضاء العملي وما يبدو لنا ونحن وراء أجهزة الكمبيوتر هو هذا العالم الافتراضي ومن جهة أخرى يعمل عمل الثقب الأسود يستهلك ويستنفذ كل دلالة أو معنى، يقول بودريار: "نحن نعيش في عالم تزداد فيه المعلومات أكثر فأكثر، بينما يصبح المعنى فيه أقل فأقل" (بودريار، 1981)

إذ يفترض أن هناك تلازما مطلقا وضروريا بين الإعلام والدلالة، بحيث أن الإعلام يكون مباشرة مدمرا للمعنى والدلالة أو مزيلا لهما، أما خسارة المعنى فترتبط مباشرة بالفعل التدميري والردعي للمعلومات والميديا ووسائلها الجماهيرية. (بودريار، 1981)

3.الحتمية التكنولوجية كمقاربة لدراسة الفضاء السيبراني:

تلتقي مقاربة الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان (Marshall McLuhan) والمادية التاريخية في التقسيم البنيوي والوظيفي للمجتمع إلى بنية فوقية وبنية تحتية، فترى الماركسية أن البناء الفوقي للمجتمع هو نتاج للبناء التحتي، فالبناء التحتي للمجتمع هو مجموع علاقات المجتمع الاقتصادية والبناء الفوقي هو القوانين والأخلاق والسياسات العامة، وبحكم ما تشهده البنية التحتية من ديناميكية مستمرة وتناقضات في بنيتها

الداخلية، مردها الصراع بين مختلف قوى الإنتاج، يدخل أيضا البناء الفوقي الذي يتكون من المؤسسات والنظم والمعايير والأخلاق والقيم والثقافة وغيرها من مكونات البناء الفوقي وسرعان ما تجد مكونات البناء الفوقي نفسها مرة أخرى أسيرة التغيرات في البناء التحتي ومدعوة لأن تأخذ أنماطا جديدة من الإجتماع والتفاعل والسلوك تتوافق مع مرحلة التطور الجديدة، على عكس مقاربة الحتمية التكنولوجية، التي ترى بأن البنية التحتية ليس قوامها العلاقات الإقتصادية والصراعات الطبقية، بل وسائل الإتصال التي لم تعد وسيلة لنقل المعلومات فحسب، بل أضحت تقدم لنا عالما جديدا وفق رؤية جديدة كان لها الأثر الكبير على علاقاتنا بالآخرين، وعلاقاتنا بالعالم، بل جعلتنا نبني رؤية جديدة للعالم المحيط بنا.

لقد كان لوسائل الإتصال الدور الكبير في كيفية تشكيل المجتمعات البشرية، فتطور وسائل الإتصال انعكس على سيرورة/صيرورة المجتمعات، فلا يمكن بأي حال من الأحول أن ننكر أو نتجاهل تأثير تكنولوجيا أثر الإتصال على شعور وسلوك وتفكير الأفراد، إذ يعتبر ماكلوهان أن الرسالة **تتماهى** مع الوسيلة، ذلك أن الوسيلة بدل المضمون هي الأساس في تشكيل المجتمعات على أساس أن لكل وسيلة جمهورها الخاص وخصائصها ومميزاتها، وبالجملة فإننا ننظر لتكنولوجيا الاتصال الحديثة كبنية مركزية مُؤَطّرة للمجتمعات، بات يتولَّد عنها باقي البِنَى الفوقية، أي كل أشكال الإنتاجات اللامادية التي تُقدِّمها المجتمعات (الدين، الفكر، الأخلاق والمثل، الفنون). (حميدو، 2018) إذ يقول ماكلوهان: نؤمن بأن البيئات التكنولوجية ليست مجرد وسائل جامدة، إنها سيرورات متحركة تعيد قَوْلَبَة الكائنات البشرية وتعيد قَوْلَبَة التكنولوجيات الأخرى أيضًا. إن النقلة الحادة التي نعيشها في عصرنا الحالي بمرورنا من التكنولوجيات الميكانيكية لعصر العجلة إلى تكنولوجيا الدارات الكهربائية -يخلص ماكلوهان- تُشَكِّل أحد أهم التغيرات التي عرفها التاريخ" (حميدو، 2018) وهو ما نلاحظه في العصر الذي نعيشه الذي وسمه البعض بعصر ما بعد الصناعي أو عصر العولمة أو عصر مجتمع المعلومات حيث أصبحت شركات تكنولوجيا الاعلام والاتصال هي التي تصنع وعينا وتحدد معايير قيمنا في عصر شهد تراجع القيم الدينية و الترنسندنتالية بعامة، ولقد أثبتت الشركات الإعلامية الكبرى في أكثر من مرة قدرتها على التحكم في الواقع وبنيته الرمزية من خلال ما يسميه "بودريار" ما فوق الواقع، والصراع الطبقي داخل المجتمع الصناعي أصبح صراعا بين صناع التكنولوجيا بوصفها الحامل للعولمة الثقافية، وما نخلص

إليه أن البنية الفكرية الرَّقْمِية الفريدة التي بدأت تتمخض عنها في عقول جيل الإنترنت منذ بداية القرن الحادي والعشرين، بما أصبح يُمَهِّد لقطيعة حادة مع البنية الفكرية الخطية التي رافقت البشرية في تحولاتها منذ عصر الكتابة (حميدو، 2018). إننا نصوغ هنا مفهوم التفكير الفسيفسائي للدلالة على البنية الإدراكية والشعورية التي تميز جيل الإنترنت، وهي بنية تختلف عن التفكير الخطي المنهجي الذي ينتج عن البنية الفكرية التي ولَّدها عصر الكتب والوسائط المطبوعة عامة (حميدو، 2018)

4.من المجتمع المحلي إلى المجتمع الكوني

نحاول أن نرصد التحول البنيوي الذي حدث على المجتمعات المحلية وكيف ساهمت تكنولوجيات الإتصال في إعادة تشكله ضمن بنيتها المعلوماتية والشبكية، وصولا إلى المجتمع الكوني، والمجتمع المحلي هو مجموعة من الأفراد الذين يعيشون في بقعة جغرافية معينة، تجمعهم عوامل كالقيم المشتركة واللغة والبنية الإجتماعية الواحدة، كما يخضعون لقوانين ونواميس وأعراف عامة، من خلالها يتقاسمون موارد معينة ويتشاركون عديد الأنشطة اليومية كالسياسية منها والإقتصادية والإجتماعية ولعل ما يمكن التركيز عليه هو شعور الإنتماء المشترك والألفة والحميمية، وعليه قد يتجاوز مفهوم المحلية هنا القرية أو المدينة أو الدولة بأكملها بعبارة أخرى بمكن القول بأن المحلية قد تتجاوز أطر الدولة بمفهومها المعاصر، وقد ذكر (رحومة، 2008) تعريفا لجورج هيللري (George Hillery) **للمجتمع المحلي بوصفه مجموعة من الناس، يشتركون في تفاعل اجتماعي، وبعض الروابط المشتركة بينهم، ويشتركون في مساحة مّا على الأقل لبعض الوقت (...)، هناك بصفة عامة أربعة عناصر أساسية لتكوين المجتمع المحلي، وهي: الجماعة، والتفاعل، والروابط، والمكان-الزمان.**

غير أن المجتمع المحلي كغيره من عديد الظواهر الإجتماعية مر ولا يزال يمر بعديد المراحل الإنتقالية، فهو قوة إجتماعية تتكيف في كل مرة مع كل ما هو مستجد، وبما أن المجتمع المحلي شكل من الإجتماع بين الأفراد من خلاله يختبر الناس محيطهم ويجمع شملهم، فهو بشكل من الأشكال بديل عن القوى البيروقراطية المسيطرة للدولة وكما أسلفنا يمكن أن يشير إلى مجتمع بلا دولة. (أورتون و ونيك بريور، 2021)

لكن على الرغم من تماسك المجتمع المحلي عبر مختلف تحولات البنيات والوسائل الإتصالية، إلا أن عصر المعلومات قد شكل بالفعل منعرجا في تاريخه ليس على بنيته

ووظائفه فحسب لكن في مرتكزاته وأهدافه، إذ يرى مانويل كاشيلر بأن الناس لم يعودوا يجدون في المجتمعات المحلية ما يلبي طموحاتهم، بل أصبحوا ينظرون إلى أبعد من ذلك نحو الترابط الكوني، فقد ذهب كاشيلر إلى حد القول بأن العلاقات المحلية لم تعد ذات جوى، فقد استبدلت، حيث يقول: "إن تحولا كبيرا في الألفة الإجتماعية في المجتمعات المعقدة قد حدث مع حلول الشبكات مكان المجتمعات كأشكال رئيسة من الألفة الاجتماعية" (أورتون و ونيك بريور، 2021)، فلقد أدت الثورة الرقمية لما يسميه جيل ليبوفيتسكي إنضغاطا في الزمان والمكان،(Lipovetsky & Charles, 2004) أعاد من خلاله صياغة مفهوم الزمان والمكان والجغرافيا، وحلت الشبكات مكان المجتمعات، واستبدلت سرعة التنقل بسرعة التدفق، وبعبارة أخرى يمكن القول بأنه مع الثورة التكنولوجية صُقل مفهوم جديد للمكان والتواجد، فحلت الشبكات مكان العلاقات المكانية ومفهوم الحضور على الخط online مكان الحضور الفعلي، فقد أتاحت الشبكة الإتصالية تطوير علاقات كونية عابرة للحدود الجغرافية وعابرة للثقافات وغير خاضعة للقيود التي يفرضها الزمان والمكان.

إن هكذا بيئة إتصالية متطورة ساهمت بشكل كبير في إيجاد أنماط جديدة من الإجتماع البشري، وكما قال Fernback (1999) المجتمع هو عملية وليس كينونة (رحومة، 2008)، وبالتالي نؤكد ما ذكرناه سالفا بأن المجتمع ذو طبيعة ديناميكية تخضع لمتغيرات وتطورات البنية التحتية الإتصالية، ما أدى إلى ظهور شكل آخر من المجتمعات وهو ما نصطلح عليه بالمجتمعات الإفتراضية التي سنعرج عليها في العنصر المولي.

5.المجتمعات الإفتراضية

1.5.تعريف المجتمعات الإفتراضية

لقد وفرت الفضاءات الرقمية فضاء إلكترونيا رقميا مفتوحا وديمقراطيا، لا يرتبط بالمكان كما لا يوجد فيه أوجه تفاوت على صعيد الثروة والطبقة الإجتماعية والنوع والعرق، مساحة سمحت لإنشاء مجتمعات إفتراضية إذ يعرفها راينغولد بقوله: "إن المجتمعات الإفتراضية هي تجمعات إجتماعية، تنشأ من الشبكة Net حين يستمر أناس بعدد كاف في مناقشاتهم علنيا لوقت كاف من الزمن، بمشاعر إنسانية كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبراني" (رحومة، 2008)، وتماشيا مع مقاربتنا النظرية، لن نتعرض لتاريخ ظهور المجتمعات الإفتراضية، ولكن نحيل القارئ الكريمة على الكتاب القيم للأستاذ رحومة "علم

الإجتماع الآلي" فصل المجتمعات الإفتراضية، وسنحاول فيما يلي التطرق لعوامل تطور هذه المجتمعات الإفتراضية إضافة لأسباب الإقبال عليها والإنضمام لها.

2.5.عوامل ظهوروتطور المجتمعات الإفتراضية:

لقد تغير بفعل الشبكات النمط الإقتصادي حيث أصبح نمط رأسمالية المعلومات فهي مرحلة تشكل معين من رأس المال الذي حل فيه إنتاج المعرفة والأفكار بدل السلع، مما أدى إلى تغيرات أساسية في البناء الفوقي الإجتماعي حيث شكل تشكيلات إجتماعية جديدة، (أورتون و ونيك بريور، 2021)، وندرك ذلك من خلال سيطرة شركات تكنولوجيا الإعلام والإتصال، والتكنولوجيات بصفة عامة، ففي مجتمع المعلومات تصبح المعلومة هي السلعة الرئيسية ومواقع البحث كجوجل وياهو ومراكز المعلومات كمكتبة الكونجرس وويكيبيديا إنه عصر الرأسمالية المعلوماتية.

- مبدأ التشاركية الذي يتيحه الجيل الثاني من الويب، لاسيما وظهور التطبيقات على شبكة الإنترنت، وازدياد سهولة ومرونة مشاركة الملفات إلى تحريك الإنترنت نحو مبادئ المحتوى الذي ينتجه المستخدم، فكل فرد أو مستخدم يمكن أن يصنع محتواه بنفسه ويقوم بنشره لأكبر فئة من مرتادي منصات التوصل الإجتماعي بكبسة زر أو لمسة على شاشة
- أصبح الإنترنت رمزا للبيئة الإقتصادية الواسعة، من خلال هذه البيئة الإفتراضية الجديدة يتم التسويق للبضائع ومختلف العمليات التجارية من بيع وشراء، أو ما يسمى بالتجارة الإلكترونية، حتى باتت العملة الإفتراضية خاصة منها البيتكون تلقى رواجا كبيرا بين المتعاملين الإقتصاديين، وأرست بذلك معالم رأسمالية جديدة عابرة للحدود وباتت تتوسع وتلتهم الكيانات الاقتصادية للدول الضعيفة، تقول تيرانوفا: "الإنترنت ليست مجرد وسيط محدد، بل نوع من التنفيذ الفعال لقنية تصميم قادرة على التعامل مع انفتاح الأنظمة، لقد أنبأ تصميم الإنترنت بنحو مسبق بتكوين فضاء إلكتروني إمبريالي جديد، تتمثل مزيته الرئيسية في الإنفتاح الذي يمثل أيضا ميلا مبدئيا للتوسع"، (رحومة، 2008)،
- ولعل عاملا آخر ساهم بقسط وافر في ظهور أشكال جديدة من المجتمعات، يتمثل في حالة الإغتراب التي عاشها ويعيشها الكثير من أفراد المجتمعات، والإغتراب كما جاء في

القاموس هو إنهيار أي علاقات إجتماعية أو تجريبية، وفي الطب النفسي، يشير المصطلح إلى الفجوة بين الفرد ونفسه والتباعد بينه وبين الآخرين، وما يتضمنه ذلك من تباعد أو غربة للفرد عن مشاعره الخاصة التي تُستبعد عن الوعي، كما ويشير الإغتراب في العلوم الإجتماعية إلى عملية القطيعة والإنفصال التي تقع بين الذات والعالم الخارجي (جابر و كفافي، 1988) وهذا ما أدى بالمحصلة إلى ظهور المجتمعات الإفتراضية والإقبال عليها مشكلة مجتمعا رقميا بديلا يوفر في الأغلب هامشا من الحرية يفوق بكثير المجتمعات الكلاسيكية، فيجد مرتادو مواقع التواصل الإجتماعي ملاذهم وعزلتهم في التجوال بين مختلف المواقع مشكلين فضاءهم الخيالي الذي يغدو عالمهم الخاص، ولعله وجب الإشارة إلى أن الكثير ممن يعانون من مشاكل في مجتمعاتهم الفعلية كمشاكل جسدية كالإعاقة الحركية أو نقص الإدراك أو مشاكل التواصل مع الآخرين كمشكلة التأتأة فيكونون عاجزين عن التكيف مع المجتمع غير قادرين على تكوين علاقات صداقة أو حب أو عمل، وإذا كانت **نظرية الوجود الإجتماعي** وفقا لمقاربة علم الإجتماع الكلاسيكي تُقاس بالقدرة على إبراز الوجود الجسدي والعاطفي وتجربته مع الآخرين من خلال التواصل وجها لوجه والإحتكاك ضمن المحيط الإجتماعي، فإن النظرية السالفة الذكر وفقا للمقاربة الجديدة تُعرف على أنها الشعور بالمجتمع الذي يختبره الفرد ضمن بيئة عبر الإنترنت، ذلك أن العديد من السلوكيات الحميمية غير اللفظية على منصات التواصل تعزز العلاقات بين المتفاعلين (الإيموجي كرمز القلب، الضحك، الحنين، الإبتسامة) ولا تستلزم الحضور الفعلي وبالتالي يلجأ بعضهم للمجتمعات الإفتراضية والتي لا تستدعي حضورهم الجسدي الفعلي مكتفين بحضور صور بروفايلاتهم مكونين علاقات حميمية أو علاقات عمل قد تكون تعويضا عما لا يمكنهم تحقيقه في الواقع.

- لقد أثبتت بالفعل المجتمعات الإفتراضية إمكاناتها في توفير تلك الألفة الإجتماعية التي توفرها المجتمعات المحلية بين أفرادها، ففي الدول الغربية مثلا، العصر الرقمي يمكن أن يكون مكانا للأمل والتجديد، ويبدو أن الألفة الإجتماعية المتأصلة التي وعدت بها تكنولوجيا المعلومات والإتصال، توفر علاجا جاهزا للفردية المفرطة التي ميزت العلاقات الإجتماعية في العقود السابقة منذ صعود الليبرالية الجديدة wellman 1999 (أورتون و ونيك بريور، 2021)، فقد عزل النموذج الليبرالي الفرداني الموحش الإنسان الأوربي وجعله

آلة في يد الرأسمالية يعيش حالة الإغتراب، فقدمت له المجتمعات الإفتراضية البديل الحميمي للأسرة والعائلة، وخففت بذلك وطأة وحدته وعزلته الإجتماعية.

- كما ساهم أيضا الإنغلاق السياسي والإقتصادي لاسيما في الدول العربية إلى محاولة فئة الشباب خاصة البحث عن أفق للحرية والحوار وإبداء الرأي، وقد تكون الأنظمة السياسية القمعية السبب الرئيس الذي يجعل الجماعات الإفتراضية تبدو أو تكون جبهات معارضة ضد النظام السياسي/الإقتصادي القائم حيث توفر شبكة الإنترنت صوتا ومصدرا إعلاميا مستقلا (رحومة، 2008)، ونسوق كمثال ثورة أكتوبر في مصر التي أطاحت بالرئيس المصري الأسبق محمد حسني مبارك، حيث أنشأ ناشطو حركة كفاية عددا من الصفحات على الفيسبوك، إستطاعوا من خلالها تجنيد مئات الآلاف والملايين من المصريين من كافة أطياف المجتمع، فاجتمعوا معا في ساحة أكتوبر الكبيرة واعتصموا لأيام ورابطوا حتى تم إعلان استقالة الرئيس، وكما لا ننسى مواقع إستطلاع الرأي في الولايات المتحدة الأميريكية لاسيما خلال الإنتخابات الرئاسية التي جاءت بترامب حيث تم اثبات ضلوع شركة فايسبوك بالتعاون مع الحكومة الروسية في استمالة الناخبين واللعب في نتائج الانتخابات.
- طغيان النموذج الغربي لاسيما الأمريكي ضمن ما يُصطلح عليه **بالعولمة الإعلامية والعولمة الإقتصادية**، ولعل حالة **الأنوميا** التي عاشتها المجتمعات خاصة العربية منها جعلت من الشباب في حالة ذهول من النموذج الغربي، وإذا كان دوركايم وسميل يُرجعان حالة الأنوميا كنتيجة لما أحدثته الثورة الصناعية في القرن 19 و20 في حياة المجتمعات السكانية من تشتت وضياع وهو ما نتج عنه غياب الشعور بالإنتماء للمجتمع، فإن البنية التحتية الإتصالية التي أحدثتنا تكنولوجيا المعلومات قد جعلت من المجتمع الغربي يوتوبيا وبديلا للفرد العربي، فيطغى النمط الغربي على النمط المحلي.

6.خاتمة:

وفي ختام بحثنا، نخلص إلى أن الثورة التكنولوجية شكلت بيئة إتصالية شبكية، أدت إلى ظهور بنيات إجتماعية إفتراضية أُستبدلت فيها العلاقات بالشبكات، تجاوزت المجتمعات المحلية بشكلها الكلاسيكي، كما ألغت الحدود الجغرافية واختزلت المكان والزمان وجعلت العالم قرية كونية صغيرة، أدت إلى ظهور أنماط جديدة من السلوك والعادات

والنواميس وخلقت فضاء سيبرانيا عابرا للأوطان والثقافات، متجاوزا الأشكال الكلاسيكية للتنظيمات الإجتماعية كالأسرة والدولة، ولعلنا نسوق خاتمتنا على شكل توصيات عامة نسردها فيما يلي:

- البحث عن مقاربات جديدة لدراسة الظاهرة الإجتماعية الرقمية
- إن ظاهرة التثاقف من شأنها أن تهدد الهويات المحليات لاسيما مموني اللغة والدين
- ضرورة إعتماد مؤسسات حكومية وغير حكومية تضطلع بمهمة الأمن السيبراني والأمن الفكري على السواء
- توفير أجواء ديمقراطية وهامش معتبر لحرية التعبير والحريات الفردية لتلبية تطلعات الشباب العربي وكفه عن البحث عن البديل

7.قائمة المراجع:

1. جابر عبد الحميد جابر، و علاء الدين كفافي. (1988). *معجم علم النفس والطب النفسي*. القاهرة: النهضة العربية.

2. بودريار جان. (1981). *المصطنع والإصطناع*. (جوزيف عبد الله، المترجمون) باريس: جاليلي.

3. رحومة علي محمد. (2008). *علم الإجتماع الآلي*. الكويت: عالم المعرفة.

4. حميدو كمال. (06 03, 2018). *https://studies.aljazeera.net/ar/mediastudies/2018/03/180306084523288.html*. تاريخ الاسترداد 3 11, 2021، من https://studies.aljazeera.net.

5. أورتون كيت ، و بريور جونسون ونيك. (2021). *علم الإجتماع الرقمي منظورات نقدية*. (هاني خميس أحمد عبده، المترجمون) الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

6. Dowek, G., & Abiteboul, S. (2017). *Les temps des algorithmes.* Paris: le Pommier.

7. Habermas, J. (1962). *The structured transformtion of public sphere.* (T. Burger, & L. Frederick, Trads.)

8. Lipovetsky, G., & Charles, S. (2004). *Les temps hypermodernes.* Grasset.

8. ملاحق:

ملحق1: البنية التحتية والبنية الفوقية للمجتمع السيبراني

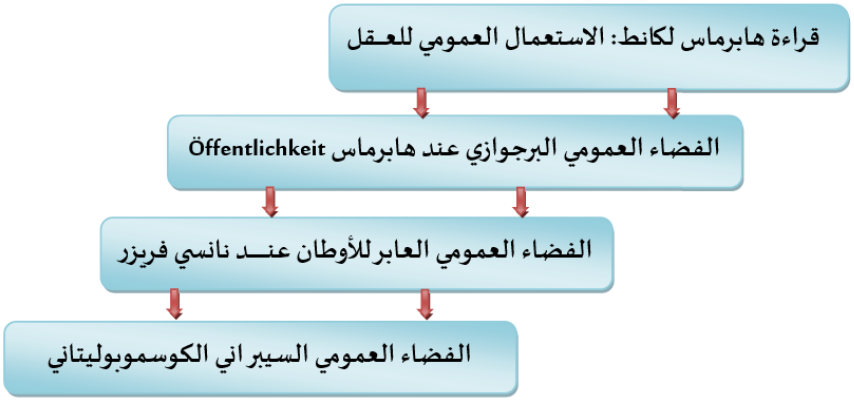

ملحق2: كرونولوجيا الفضاء العمومي